

الإسلام والعمران فى المجتمع الإسلامى

ليست المرة الأولى التى أتكلم فيها عن الإسلام والعمران فى المجتمع الإسلامى . وفى سابق قلت إن الإسلام كيف العمارة الإسلامية فمالت إلى الأفقية تحقيقاً لمعنى المساواة وإلى السقوف المنخفضة وإلى الاحتفال بالأسرة والبيت الذى كيف عمارته الحجاب فى الإسلام ففتح على الداخل لا الخارج وشكل نوافذ مشربيات حاجبة .

كيف الإسلام العمارة الإسلامية يوم انعكس الترتيل فى القرآن عليها ، العقود المتوالية . وتوالى العقود فى العمارة الإسلامية لون من التردد . ودكة المرددين فى المسجد نوع من التردد . لون من التطريب الهندسى .

ونثر النجوم فى الزخرفة الإسلامية فى أحجام مختلفة نوع من التردد والتوليد ويجئ الطبق النجمى المشهور فى الفن الإسلامى تحية لسورة النجم .

والرحمة فى الإسلام ترجمتها العمارة الإسلامية فى عدة صور: المارستان والأسبله والأربطة والخانقاهات والأوقاف والأحباس .

والجنة فى الإسلام شكلت كثيراً من الآثار الإسلامية ممثلة فى العمارة الخيرية . وتأکید الإسلامية لقيمة العمل جعل العمارة الإسلامية لا تتوقف حتى فى عصور ضعف الدولة الإسلامية .

وسماحة الإسلام وشموليته كانت وراء عواصمه فقد تعددت العاصمة الإسلامية لأن أصحابه لم يتمسكوا بمدينة معينة فالإسلام دولة يقوم عليها المسلمون لا العرب ومن هنا كانت العاصمة بعد المدينة ، دمشق ثم بغداد ثم القاهرة هذا غير المدن الأندلسية . وكان من أثر هذا أن ازدهرت فى الإسلام المدن والعواصم ، معمارياً وفنياً وعلمياً وهى فى النهاية محسوبة له بما تحمل من نظام وحضارة .

كما وقفت طويلا عند توجيه القرآن للتشكيل والتلوين بالنور والظلال عند توجيهه للتجسيم والتصوير يوم وصف الكون صورا حتى الكلمة الطيبة صورة إذ شبهها بالشجرة الطيبة.

الاسلام والبناء:

لقد حالت روح الإسلام دون الهدم حتى في الحروب فحرم هدم المنازل أو بيوت العبادة أو قتل النساء والشيوخ والأطفال.

لقد خرج هولاءو والتتار من صحراء فخرى وألقوا بمكتبة بغداد في النهر لتكون موطناً لخيولهم وخرج العرب من صحراء فعمروا في الشرق والغرب.

وليس معنى هذا أنه لم يحدث هدم في دولة العرب ودولة الإسلام فالملوك كما يقول الجاحظ^(١) من شأنهم (أن يطمسوا آثار من قبلهم والعمل على إماتة ذكر أعدائهم فقد هدموا لهذا السبب، المدن والحصون).

لقد أجرى الخليفة المأمون عمارة (٢١٦ هـ - ٨٣١ م) بقبة الصخرة المطلّة على القدس، فاتخذها سبباً أو مناسبة لمحو اسم منشئها عبد الملك بن مروان ووضع اسمه مكانه.. وفات انصاره، تغيير التاريخ الأول وهو ٧٢ هـ - ٦٩١ م فأنكشف أمرهم. ولكن الحقيقة بعد هذا تضييع معالمها كالأثر.

وتحق كلمة المقرئى صاحب المواعظ والاعتبار (إذا تأملت البقاع وجدتها، تشقى كما تشقى الرجال وتسعد)^(٢)

حتى صلاح الدين هدم سور مدينة أنصنا بالصعيد وشحن أحجاره ليبنى بها مع أحجار الهرم التى هدمها وزيره بهاء الدين قراقوش، سورا يحيط بالقاهرة والفسطاط كما انه خرب كما يقول الأثرى حسن عبد الوهاب، القصور الفاطمية وكانت من عجائب الدنيا.. فتبعثرت أجزاؤها فى منشآت المنصور قلاوون وغيره.

حتى المساجد لم تسلم من يد الهدم والتخريب! فقد هدم الملك (الصالح) نجم الدين أيوب كثيراً من المساجد والقصور ليبنى قلعة الروضة.

(١) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٣٦ - ٣٧.

(٢) المواعظ والاعتبار للمقرئى ج ١ ص ٣٤٨.

ولكن هؤلاء غلبت بشريتهم الأرضية، سماوية العقيدة، ومثالية الدين.

وكما يتجاور الخير والشر في الحياة بل في الطبيعة الواحدة أى في الإنسان الواحد، فإن هؤلاء يقف إلى جانبهم، أخيارا عمروا أقاموا المدن والمكتبات وشجعوا العلوم والفنون فازدهرت وأزدهرت. ومما بنوه مدينة (اللد) في فلسطين، و(بغداد) في العراق في مكان بابل القديمة، والقطائع والعسكر والقاهرة المعزية في مصر الإسلامية.. ولو ان الثلاث، امتدادات لمنف العظيمة التي تتجدد ولا تتبدد... تتغير ولا تغيب... شاهدة الحضور... عزيزة الوجود... لها، بعد كل الأسماء، في الوجدان المصرى بل الإنسانى، مكان لا يشائيه إلا طيبة الطيبة أقدم مدينة في الدنيا.

وتضم مصر المدينتين... ويتوج اسمها المدينتين... مركزين حضاريين مصريين. ويفتح العرب المسلمون، الأندلس، فينقلون إليها كل مافى بغداد من علوم وفنون وينشئون في قرطبة كثيرا من المباني الفخمة. والمكتبات العظيمة العامة والخاصة. ومن أشهر المكتبات العامة، مكتبة قرطبة - بلغ عدد المكتبات العامة ستين مكتبة - وقد بلغ عدد مكتبة قرطبة أو مكتبة الحكم المستنصر (٥٠ - ٦) مائتى ألف مجلد جمعها من إفريقيه وفارس وسائر البلدان... وكأنه يستمع إلى الحديث (اطلبوا العلم ولو فى الصين)... وكأنه يصغى بقلب مفتوح إلى نداء الآيات التي تردد فيها اسم العلم ١١٦ مرة.

وكثرت رحلة العلماء بين المشرق والمغرب للإفادة والاستزادة وليست كرحلة مذعورة حين دهم هولاء بغداد ففرت العقول وتركها العلماء ولولا مصر التي احتضنتهم بل استقدمت الخليفة نفسه إحياء للخلافة الإسلامية، وكان هدف التتار القضاء عليها، باسقاط الخليفة وتدمير بغداد عاصمة الدولة.

لقد جعل الرسول فدية الأسير تعليم عشرة من صبيان المسلمين فى دعوة إلى العلم كالدين.

إن الذين بكوا على الإسلام فى الأندلس إنما بكوا فى الحقيقة على زائل من الحكم أما الإسلام فهو باق فى الأندلس بل إن إسبانيا تعيش عليه اليوم بما تقصد إليه السياحة والرواد.

الإسلام اليوم مائل فى مسجد قرطبة وقصر الحمراء بغرناطة وآياته الباقيات فى اشبيلية ومرسيه ومدريد العاصمة نفسها وغيرها.

(إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر)

وقد جعل المسألة ليست البناء فحسب بل * المحافظة عليه .
* الإضافة إليه .

لقد بدأ جامع قرطبة بفدان وانتهى بثمانية .

لقد كتب الإسلام تاريخ العمارة الإسلامية .

وتاريخ الأزهر خاصة . فواحد يضيف إليه ، وآخر يوقف عليه ، وثالث يجعل منه ،
مدارس لتعليم القرآن وهو الجامعة الكبرى .

تخطيط المدن في الإسلام:

وقد عنيّت الشريعة الإسلامية بتخطيط المدن .. ففي سنن أبي داود: أن النبي صلى
الله عليه وسلم أمر بأن ينادى في معسكره بأن من ضيق منزلاً أو قطع طريقاً فلا جهاد
له ، وذلك حينما لاحظ تضيق صفوف الأخبية في ميادين القتال . (١)

وقد وضع عمر بن الخطاب دستوراً لإنشاء المدن ، أذاعه على فاتحي
الأمصار ومنشئها في صدر الإسلام ، فجعل المسجد محور المدينة أو مركز الدائرة بحيث
تتفرع الشوارع حوله ... وأن تكون المداخل أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين ، وما بين ذلك
عشرين ، والأزقة سبعة أذرع والقطائع ستين . (٢)

وكذلك تناول المشرع الإسلامي قوانين سعة الشوارع والطرق ، وتناولها
في أحكامه . وافقوا على أن الطريق النافذ مباح المرور فيه لكل إنسان لأنه حق
للمسلمين ، فليس لأحد أن يبنى فيه أو يخالف خط جاره (خط التنظيم) (٣) فلا يبرز عنه ،
كما وضعوا قوانين لإقامة الأسبطة (٤) واشتروا أن تكون مرتفعة بحيث يمر المحمل ، أو
الفارس على جواد ورمحه قائم ، وحرّموا بناء المصاطب وغرس الأشجار أمام الدور ، مادام
يترتب على غرسها تضيق الطريق .

(١) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٨٢ .

(٢) اقرأ المرجع السابق .

(٣) الفوائد الباهرة في حكم شوارع القاهرة .

(٤) الساباط: ممر بين منزلين من أعلى .

ووضعوا فى حكم المنافع العامة الشوارع الخاصة التى أبيع استعمالها، ومثلها الشوارع التى اصطالح الملاك على تركها من أملاكهم، والطرق التى تشقها الدولة، فلايجوز شغلها، ولاتضييقها صونا لنقوش الجدران فى وجهات المساجد والدور، وتيسيرا للمرور، ولتوفر الهواء والنور، شددوا على سعة الشوارع.

وبمناسبة التخطيط وصف الكاتبون القاهرة وصفا لا أدرى هل نسر به أو نحزن...
خرج إليها يوما موسى بن عيسى فهتف بمن حوله فى بهر الإعجاب، قائلا أو
سائلا:

أتأملون الذى أرى؟ قالوا وما الذى يرى الأمير؟ قال أرى ميدان رهان، وجنان
نخل، وبستان شجر، ومنازل سكنى، وذروة جبل، وجبابة أموات، ونهرا عجاجا، وأرض
زرع، ومراعى ماشية، ومرتع خيل، وساحل بحر، وصائد نهر، وقانص وحش، وملامح
سفينة، وحادى إبل، ومفازة رمل، وسهلا وجبلا فهذه ثمانية عشر متنزها فى أقل
من ميل فى ميل.

ماذا نقول الآن؟

... ..

وقد استحدثت العمارة الإسلامية عناصر تعد كل منها موضوعا هاما فى تاريخ هذه
العمارة مثل الملذنة المصرية بمراحل تطورها..... ومثل القباب.

وأحفل البلاد بالآثار الإسلامية، مصر... حتى ليقول الأثرى حسن عبد الوهاب: (إن
مجموعة القباب والمنارات فى مصر لانظير لها فى أى قطر آخر من الأقطار من حيث
الكثرة والتنوع فى مادة البناء ما بين آجر وحجر، أو الجمع بينهما وما بين تنوع فى الطرز
والزخرف، ومباراة فى الرشاقة، حتى أصبحت المنارة والقبة المصرية، جديرتين بلقب
عرائس الباب والمنارات فى العالم الاسلامى).^(١)

لقد استرعت الحضارة الإسلامية أنظار الناس من غير العرب وغير المسلمين منذ ما
يقرب من ألف سنة وبخاصة أولئك الغربيون الذين خضعوا لتأثيرها كما يقول الدكتور
فريد شافعى فى كتابه (العمارة العربية فى مصر الإسلامية) عندما أخذت أفواجهم تنتاب

(١) كتاب (الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية) للأستاذ حسن عبد الوهاب.

على بلاد العرب والمسلمين أثناء الحروب الصليبية واستمرت تشد أبصارهم وتستهوئ أفئدتهم طوال تلك الحقبة إلى وقتنا هذا. وقد أنصفها الكثيرون وفي مقدمتهم الدكتور سيجريد هونكه في كتابها (شمس الله على الغرب).

غير أن فئة من هؤلاء العلماء لم تلتزم المنهج العلمي الخالص فحاولت حجب الفضل عن أصحابه... من شدة إحساسها به وهو نوع من التقدير المعكوف كما يقول الأستاذ العقاد. فقد اشتد نفوذ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى فلما لم يملك الجاحدون لها فكاكا من أسرها سموا المسلمين نقلة في إشارة إلى مرحلة الترجمة التي سبقت مرحلة الإبداع.

يكفى أن العرب وفروا على الحضارة الأوربية والحضارة الحديثة اليوم، زمنا طويلا بعد بعشرات القرون.

لقد لبثت أوربا في طور التخرج والنقل حين أخذوا عن العرب والمسلمين أكثر مما لبث العرب في هذا الطور حينما أخذوا عن اليونان.

ومهما يكن من أمر فإن أشد الناس تعصبا لا يمكنه الإقلال من شأن النتائج الحضارية الخطيرة التي حدثت في تاريخ البشرية، وترتب على ظهور محمد النبي العربي وعلى قيامه ببث الدعوة إلى الدين الإسلامي وعلى انتشار هذا الدين في منطقة كبيرة من العالم، فإن ما أحدثه محمد بما أتى به من عقيدة وتعاليم يدعو بها الناس إلى عبادة رب واحد عظيم، وإلى خلق قويم، وترشدهم إلى مافيه صلاحهم وصلاح البشرية، وإلى العلم والعدل والشورى... كل ذلك لاشك يعد نقطة تحول هامة في مجرى حضارات العالم ولا يمكن مقارنة هذا الحدث بأي حدث آخر في تاريخ البشرية.

كانت صفات وأسماء الله الخالق المبدع أمام عمل الفنانين ووجداناتهم وأحاسيسهم فإنتاجاتهم الفنية محملة بهذا الإحساس القدسي والعبادة والتوحيد والثناء حتى وقف العالم الفرنسي BOURGOIUN برجوان طويلا عند الفن الإسلامي.

الإسلام والفن:

إن تعلق القلب المسلم بالمطلق كان وراء حب الفنان المسلم للتجريد حتى في رسمه للأشكال يغطيها بالزخارف ويوشئها بالزخرفة أو يحيل الأجزاء إلى وحدة زخرفية في تحويل يكاد يبلغ مرتبة التصوير.

وتمطر السحائب بعد كلمة الرشيد بغزارة ويتدفق المال كالسيل ويظهر ميل النفس الطبيعي إلى الاستمتاع بل تشتد الرغبة فيه بعد حرمان طويل ويجد العربى المسلم حلا سعيدا للمعادلة الصعبة .. بين حض العقيدة على القسط والقوام بين الإسراف والتقتير وبين حب الفخفة وجنون العظمة فيعوض الفنان المسلم عن التماثيل الضخمة النمنمات والوشى والتذهيب والترصيع حتى الجدران والأرض غطاها بالفسيفساء... حتى الفخار أصبح خزفا له بريق معدنى .

العمارة الإسلامية:

إن الخاصية الرئيسية التى يوصف بها العالم الإسلامى من حيث الحضارة بعامه، هى أنه حقبة ثقافية فى تطور جماعات متعددة ومتميزة من حيث الجنس والظروف الجغرافية، وليس تعبيراً عن شعب واحد من الشعوب أو منطقة من المناطق (١) ومن هذا المنطلق نجد العمارة الإسلامية ذات أثر بعيد فى العمارات المسيحية واليهودية خلال العصر الإسلامى فى الأندلس وبعده (٢)

وقد عرفت الحضارة الإسلامية، للعمارة، حقها فألفت الكتب فى العلوم الهندسية والرياضية والحيل الميكانيكية وجر الأثقال مما أقاض فى ذكره (الفهرست) لابن النديم و(مفاتيح العلوم) للخوارزمى، و(إرشاد القاصد) و(كشف الظنون).

كما وضعت المؤلفات فى علم عقود الأبنية:

ويروى الأثرى حسن عبد الوهاب أن فى مكتبة أيا صوفيا نسخة من كتاب أبى الوفاء البيروني (ت ٨٨ هـ - ٩٨ م) يتناول ما يحتاج إليه الصناع من أعمال الهندسة، ولأحمد ابن عمر الكرابيسى، كتاب: حسن الدور، وكتاب: مساحة الحلقة .

(١) اقرأ (تراث الإسلام) ج ٢ لمجموعة من المستشرقين (الترجمة العربية) .

(٢) اقرأ أ. جروبيه E. GRUBE عناصر إسلامية فى عمارة البندقية فى العصور الوسطى .

وبحث ج . مايلز G. MLES الدولة البيزنطية والعرب Byzantium and The Arabs

- اقرأ د. أ. جيراز بهوى فى : التأثيرات الشرقية فى الفن الغربى .

Oriental Influences in Western Art: JAUROZBHAY

اقرأ (تراث الإسلام) ج ٢ ص ١٥ .

والقلقشندى فى (صبح الأعشى) له وقفة عند هندسة العمائر ومهندسيها.

ولم يقتصر المهندس المسلم كما يقول الأستاذ حسن عبد الوهاب على رسم منشآته المعمارية بل وضع لها أحيانا نموذجا مجسما (ماكيت) وأقدم نموذج إسلامى هو قبة السلسلة بجوار قبة الصخرة بالقدس الشريف.

ويرى قصتها بأنه (فى أول إنشائها وقبل تجديدها كانت شكلا بنيت على مثاله قبة الصخرة سنة ٧٢ هـ - ٩٦١ م لأن عبد الملك بن مروان حينما أراد بناء قبة الصخرة، وصف ما يختاره من عمارة القبة وتكوينها للمهندسين والصناع فصنعوا له قبة السلسلة فأعجبه تكوينها وأمر ببناء قبة الصخرة طبقا لهذا النموذج).^(١)

وقد أكد هذه الرواية مؤرخون ثقة، منهم صاحب (الجامع المستقصى فى فضائل الأقصى) وغيره.

إن العمارة الإسلامية تنتمى إلى الإسلام فنا لا اسما فحسب فلم تكن لموطن الإسلام الأصلى هذا الطراز من العمارة قبله ولكن يحسب للعرب السرعة والنجاح اللذان تم بهما ظهور طراز معمارى إسلامى من شعورهم بالحاجة إليه (وهو شعور يدعو إلى العجب حقا) ... إلى إظهار حقيقة الوجود الإسلامى فى صورة مادية تختلف عما يحيط بها.

وتتميز مع ذلك بهيئة إسلامية مفهومة وتعتبر هذه النقطة كما يقول أوليج جرابار على جانب كبير من الأهمية عندما نحاول أن نقدر تراث الإسلام المعمارى.

لقد انبثق هذا الشعور من طموح حضارى إلى مواكبة ما يحيط بهم من طرز معمارية فى البلاد المفتوحة فنشأت العمارة الإسلامية ردا على مجموع كبير معقد من الإشكال السابقة عليها أو المعاصرة لها دون أن تكونها جملة وتفصيلا.

بل مما يسترعى الانتباه كما يقول أوليج جرابار (إن التوليفات المعمارية التى تكونت خلال القرنين أو الثلاثة الأولى التى نشأت عنها كل التطورات المعمارية اللاحقة، إنما كانت فى ذاتها مجرد مثل واحد لقدرة فريدة لدى المسلمين على تحويل عناصر شكلية أو وظيفية عديدة أخرى إلى شىء إسلامى مع الاعتراف بأن هذه التوليفات كانت أول أمثلة هذه القدرة الفريدة وأقواها تأثيرا).

(١) اقرأ كتاب (الأنس للجليل بتاريخ القدس والخليل) ج ١ ص ٢٤١.

• (الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية) للأستاذ حسن عبد الوهاب.

لقد نشأت المسيحية فى منطقة الشرق العربى إلا أن الاسلام كان أكثر انتفاعا بما ورثه من حضارات وأكثر تفننا فقد (أعطى معانى جديدة لأشكال كانت معروفة وشائعة، كما أعطى معانى قديمة لمبتكرات جديدة فى الأشكال).

ومع العمارة، تراث إسلامى فى فن الزخرفة إلى حد الولوج. ولعل السر فى هذا طول عهد العرب بالصحراء والرمل والتشابه والرتابة الشاملة والطويلة فما أن وقعت عيونهم فى البلاد المفتوحة على الفنون والألوان حتى ابتهجوا بها... وخدمتهم خاصة العليم، عندهم فوصلوا إلى المشاركة ثم المهارة....

وهنا لم يتركوا شيئا إلا زخرفوه ولونوه وكأن صنيعهم رد ماذى على اللون الواحد (الصحراء) حتى الجدران غطوها بالألوان رخاما وفسيفساء ومربعات قيشانية ملونة حتى المعادن كفتوا النحاس بالفضة، وموهوه بالذهب، ولونوه بالمينا... حتى الكتب جلدوها بالألوان... حتى ملابسهم أغرقوها بالأصباغ مما استلقت نظر سولومون. دوف جويتين (S. D. GOITEIN) فى تحليله للألوان والأصباغ التى كان يستعملها الرجال والنساء فى ملابسهم، والتى ورد ذكرها فى وثائق الجنيزة فى مصر القديمة (الفسطاط) فى القرنين الخامس والسادس للهجرة، الحادى عشر والثانى عشر للميلاد.

وبخاصة عندما يتحدث عن التعدد الهائل فى الألوان التى كانت تستخدم فى تلك العصور، والتى كانت تجعل الانسان فى العصور الوسطى يبدو كالطيور الاستوائية وهى تصدح بين الأشجار بألوان متداخلة، وأشكال لامعة براق، ذات أطيايف متغيرة وخطوط وتموجات.^(١)

* * *

نظم الإسلام المجتمع العربى بالحكم النظامى ممثلا فى الخلافة بعد النظام القبلى. وكم بين الاثنين فيما يتعلق بالإنسان من حقوق وواجبات تعمل عملها فى مجتمعه الجديد كرامة وإعدادا.. علما وفنا وصناعة.... عمارا وعمارة... أنسا وإيناسا يعطى الإنسان فى ظلها عطاء ويؤتى خيره لم يظلم منه شيئا.

(١) س. د. جويتين S. D. Goitein الصناعات الرئيسية فى منطقة البحر الأبيض المتوسط كما نتبين فى وثائق «جنيزة القاهرة».

• The main Industries of Mediterranean a ret as reflected in the Records of the Cairo Genira.

• مجلة التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق.

ويقارن توماس أرنولد في كتاب (الخلافة) بين الخلافة في الشرق والامبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب فيقول إن كليهما يستند إلى قوة الدين غير أن الامبراطورية المقدسة مستحدثة أو هي استمرار للامبراطورية الرومانية في الوثنية وحتى بعد المسيحية لم تكن الامبراطورية نظاما جامعا فقد كان الامبراطور الحاكم الزمني، حين يعتبر البابا الحاكم الروحي أما الخلافة (فإنها لم تقم على نظام سياسي سابق، بل هي نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التي نشأت على أثر ظهور الإسلام وبسط سيادة العرب على بلاد الفرس ومعظم بلاد الدولة الرومانية الشرقية. والخليفة حاكم سياسي يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية).

إنه أسلوب الإسلام الذي حد كثيرا من بطش الطغاة فأمن المجتمع الإسلامي واستقر. ومع الاستقرار انتشر العمران في صور شتى.

لا أريد أن أتكلم عن الخلافة نظاما سياسيا ودينيا فقد تناولها فقهاء ومؤرخون منهم أبو الريحان البيروني (٤٤٠ - ١٤٠٨) وأبو الحسن علي الماوردي (٤٥٠ - ١٠٥٨) وابن حزم (٤٥٦ - ١٠٦٤) والشهرستاني (٥٤٨ - ١١٥٣) وابن خلدون (٨٠٨ - ١٣٨٢).

كما تناولها مشغلون بالفلسفة منهم أبو نصر الفارابي في كتابه عن أهل المدينة الفاضلة، وأخوان الصفا، وشهاب الدين السهروردي في كتابه (حكمة الاشراق).

وتناولها مستشرقون منهم (متز) و(جولد تزيهر) و(توماس أرنولد).

ما أريد أن أقوله هو أن الإسلام كان وراء كل صغيرة وكبيرة في عمران المجتمع الإسلامي حيث استندت السياسة والقضاء... في الإسلام إلى روحه وتعاليمه ثم بعد هذا إلى مذاهبه الأربعة. وعندما كانت السياسة، خاصة، تتغيا ما أمر به الإسلام أن يتبع، كان يشيع في المجتمع العدل والخير يعزز هذا ويرسي قواعده القضاء الإسلامي. فالإسلام منذ وجد كان عقيدة وشريعة... وكان المسجد جامعا وجامعة وقبلة للرأى كالصلاة ومكانا للعبادة، والشورى، والأحكام في وقت واحد.

يقول توماس أرنولد: (لم يكن المسجد مكانا للعبادة فحسب، بل كان أيضا مركز الحياة السياسية والاجتماعية. فكان النبي يستقبل في المسجد السفراء ويدير شئون الدولة، ويخطب جماعة المسلمين على المنبر في الأمور السياسية والدينية. فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر عن تدهور جيوش المسلمين في العراق، واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد. ومن على المنبر أيضا وقف عثمان يدافع عن نفسه، كما كان الخليفة عند

استخلافه يلقي من فوق المنبر على الجمهور خطبته الأولى التى هى بمثابة بيان عن سياسته فى الحكم.) أى خطبة العرش بالاصطلاح الحديث.

وفى المسجد كانت تتحلق حول العلماء الندوة يفسرون ويشرحون.

وفى المسجد تلقى أطفال المسلمين العلم وحفظوا القرآن.

وفى المسجد تصدر القضاة للحكم بين الناس ونصبوا موازين العدل.

وحين أخذ المسجد هذه الأهمية فى حياة المسلمين ومدنهم صار معلما عمرانيا علميا وفنيا... هندسيا ودينيا ومساجد العصور الوسطى من أهم آثار الحضارة الإسلامية فى ذلك العهد.

وقمة العمران فى مجتمع، المساواة بين أفرادها.

وقد أعلى الإسلام قيم المساواة من تكافؤ فى الحقوق والواجبات.. من عدل ورحمة. حتى الرقيق سوى الإسلام بينه وبين مولاه فى الطعام والشراب واللباس والتعليم والتهديب وفى معظم الحقوق المدنية اللهم إلا فى الولاية.

يقول صاحب كتاب «النظم الإسلامية»^(١) (كان من اختصاص المحكمة أن تحكم بتحرير الرقيق إذا ثبت أن سيده يعامله معاملة قاسية).

كان منطق الإسلام (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفقتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة، فك رقية) وقدم هذا العتق على سائر أعمال الخير التى حض عليها فى هذه الآية.

هذا بينما يرى الرومان أرقاء:

أبناء الأرقاء، حين ينص الإسلام على ألا تزر وزرةٌ وزر أخرى، والمدنيين والعجز عن الوفاء بالدين يستوجب الرق فى شرعهم.

واليهود يزون أرقاء:

المدنيين.... كالرومان سواء بسواء.

والعاصون الشرع.

وبالطبع من أوقعهم سوء حظهم فى يدهم من أبناء الآخرين.

وجاء المسيح ومضى - فى وقت قصير - والرق باق لم ينله تعديل.

(١) الدكتور على إبراهيم - والدكتور حسن إبراهيم.

ومجتمع يشيع التراحم بين أفرادهِ من كل لون وصفهِ كالمجتمع الإسلامي، مجتمع مستقر وقرير يرتفع فيه بناء الإنسان وبناء المكان.

* * *

إذا كان المسرح أبا الفنون فإن العمارة أمها. وكما يعانق المسرح فنون الأدب والموسيقى والتمثيل والغناء فإن العمارة تحتضن فنون النقش والزخرفة والتلوين.

فن التلوين في الإسلام:

ان اللون والزخرفة في الفن الإسلامي قصد:

* لقيمتهِ الجمالية.

* للرمز عن الأشياء.

* لمحاكاة النماذج.

* للراحة النفسية بالتغيير.

ويعتمد الإيقاع في الفن الإسلامي على:

التماثل والتناظر والتبادل على الخط اللين والهندسي.

كان الإسلام وراء تشكيل الفراغ في الفن الإسلامي. فحين كره الفنان المسلم، الفراغ، أراد ملء المساحات الكبيرة. وهنا رأى اعتماده على الخطوط والتوريقات النباتية الدقيقة يتطلب وقتا وجهدا مضاعفا فرسم الحيوان والطير ليعينه الحجم على ملء المساحات... ولكنه تفاديا لرسم الكائنات الحية كما هي، لجأ إلى تحويل الشكل.

كان الإسلام وراء الحليات المعمارية التي تشبه خلايا النحل والتي استعملت في المساجد في طبقات مرصوفة وتستعمل في الزخرفة المعمارية.

ولقد أشاد القرآن بالعسل فيه شفاء للناس، وأشار إلى بيوت النحل. والسورة ١٦ في القرآن الكريم تحمل اسم: النحل (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلّي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون).

وقد تفكر الفنان المسلم فاستهدى بيوت النحل واستوحى خطوطها.

وسورة النحل فيها ذكر لنعم كثيرة مما خلق الله ومما استوحى الفن الإسلامى فيما بعد على هدى من نوره... فيها ذكر للسماء والأرض وما ذرا فيها مختلفا ألوانه... فيها ذكر للإنسان والأنعام والماء والزرع وكل الثمرات... والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحر والجبال (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها).

وهذا الثراء، أمتع الفنان المسلم وأترع فنه برؤية روية من الأشكال والألوان... والخطوط حتى الأعداد.

إن القبة الثمانية فى فارس تقف وراءها الآية (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية). الحاقة ١٧

الإسلام والجمال فى الحياة:

(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون (لكل جمال)، وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ان ريكم لرءوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها، وزينة ويخلق ما لا تعلمون). النحل ٨،٧،٦،٥

الزهد يضعف الجسم.

ولما كان العقل السليم فى الجسم السليم.

فقد أحل الإسلام الزينة والمتعة فى غير حرام لبناء مجتمع صحيح قوى.

الزخرفة والفن الإسلامى:

والخيل والبغال والحمير لتركبوها ولكم فيها متاع... اتخذها الفنان المسلم عناصر لزخرفته.

وفى المتحف الإسلامى القطعة المنسوجة سجل رقم ٩٠٦١ وبها شريط من الكتابة العربية مرسومة بأسلوب زخرفى. وفى أعلى هذه الكتابة شريط أحمر اللون به صف من الجمال البيضاء والخضراء مرسومة بأسلوب هندسى محور جدا.

أكد التوازى الشريطى فى الطبيعة المصرية فالوادي الأخضر شرائط هندسية جميلة دائمة الخضرة تشقه قنوات هى شرائط بيضاء كالخير فالماء حياة ونعمة... ويتوج هذا كله النيل وله ضفتان يليهما سهلان يليهما صحراوان... طبيعة منظومة من بحر النيل.

الكتابة العربية والفن الإسلامى:

وسادت فى النسيج، الأشرطة العرضية وكأنها السطور من دخول الكتابة فى الزخرفة... والكتابة العربية لا تكون إلا أفقية.

(ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) الملك ٥.

(هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا. وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) يونس ٥ (وصوركم فأحسن صوركم) التغابن ٣.

ويجىء بعد هذا، الفن الإسلامى، وهو فن تطبيقى يستمع إلى نداء حديث (اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع). وقد فتح القرآن له أبواب العلم.

وبالبحثون فى الفن الإسلامى بدءا من التوحيدى فى (الإمتاع والمؤانسة) حتى عصرنا الحاضر يجمعون على تكييف العقيدة للفن. ولأمر ما يصف المسلمون الفنان بأنه إنسان فاضل^(١) بينما يوصف الفنان فى الغرب بالبهيمية بل إن الحروف العربية حين دخلت فى التشكيل الفنى يقول الدكتور عفيفى البهنسى إن مرجع هذا كله إلى الفكرة التى أوحى بها علماء التصوف الإسلامى عندما نادوا بأن للحروف العربية أسراراً خفية ونسبوا إليها قدرتها على جلب الخير^(٢) بتأكيد كهيعص ون و ق والقرآن المجيد.

وإن كنت أرى أن العربية حرفاً ومعنى. اسما ورسمًا إنما تستمد قيمتها الفنية والنفسية من أنها لغة القرآن الكريم وهو الخير كله والقيمة كلها.

مرة أخرى:

إن الاسلام والفن والعمران... موضوع كبير واسع الثراء.

ليس أدل على قوة ذاتية غير عادية فى الإسلام من أنه وهو حديث عهد بالفنون والصناعات قد احتواها بقوة وحقيقته حتى صار معلماً من معالمه جديداً قديماً.... هو على جنسيته الأصلية، إسلامى فى النهاية والأثر والمفهوم.

(١) اقرأ الإمام الغزالي فى (إحياء علوم الدين).

(٢) كتاب دراسات نظرية فى الفن العربى، ص ١٨.